عمر الخيام

يحسن بي قبل أن أتكلم عن الخيام أن أذكر أن الشعر مرآة الحياة تنعكس فيها صور الكائنات فتبدو للناظرين موجودا حقيقياً لها ، وهو ككل الفنون يحتاج إلى إنشاء وإبداع وإعجاب . فأما الإنشاء فيجدته الخيال ، وأما الإبداع فيأتي به الذوق ، وأما الإعجاب فيولده الجمال

إذاً لابد للشعور من هذه اللوازم . ومتى توفرت فيه كان على النفس والياً وعلى الفؤاد سيداً وعلى الحس مسيطراً . ووجه الشعور كما يشاء ، فبكاه ان يبكي ، وغناه ان غنى ، وفرحه إن فرح ، وأحزنه إن حزن .

وأمامنا الآن شاعر عظيم صاغ في غالب من الدر تجاريب حياته وملاحظاتها فجادت لآلىء نفيسة وجواهر مكنونة . هذا الشاعر هو عمر الخيام الفيلسوف الفلكي الفارسي الذي بقيت آيات تفكيره بضعة قرون منهلا عذباً لطالب الحياة والزاهد فيها ، وواثب اللذات والمعرض عنها . والذي أبت الأيام من بعده أن تخلقنا بمثله يجيد فيما يتناوله مثلما أجاد ، ويرى الناس قيمة الحياة مثلما أرى . ولولا أني أخاف من الاتهام بالنبوءة لقلت بفراغ فوهه من الصفحات الباقية في الحياة .

ولد الخيام بنيسابور إحدى بلاد خراسان — من أبوين شعبيين فلم يكن أبوه أميراً ولا والياً بل كان رجلا رقيق الحال ينفق أعظم الجهود في الحصول على ضروريات أسرته . كذلك أمه كانت فقيرة مرنتها الحادثات على الصبر والمجالدة ومصارعة نوائب الزمن حتى احتفلت بكيان ولدها ، وأشعرته براحة العيش مدة طفولته . وكأن العناية الالهية أوحت الى هذين الوالدين أن يعتنيا بعمر حتى يأخذ حظه من الثقافة ، ثم يصبح بعد ذلك علماً من الأعلام وقمة في سماء الشهرة . ولقد حققت الظروف ظن الوالدين فجعلت من عمر الفقير أعلم أهل زمانه ، وأكثرهم شغفاً بالحقيقة ، وأبقاهم ذكراً في صفحات الخلود . ولا لوم على الظروف إذا فعلت ذلك فقد تعودنا أن تخرج من الأكواخ نبت العظماء ، ومن القصور جراثيم الانحلال والفساد . وإن نظرة واحدة الى أفذاذ التاريخ تحقق لنا ماقلنا ، وتذهب اليأس عن يضيقون ذرعاً بهذه الحياة .

تتلمذ الخيام للإمام النيسابوري شيخ المعتزلين بخراسان ، وأستاذ الكثير من رجال العلم والسياسة فحبا الخيام بفضله ، وخصه برعايته ، وألف بينه وبين اثنين من تلاميذه : هما نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان والحسن بن الصباح زعيم الاسماعيليين . فنشأت بين الثلاثة أواصر المحبة والصداقة والاخاء ، وشعر كل منهم بحاجة إلى أخيه

فى الحال والمستقبل ، وأخذوا يتباحثون فى مصير كل منهم بعد التخرج ونظره إلى زميليه إن أصاب مالا أو عزا أو جاها وحرمان هذه الميزات . وأخيرا اتفقوا على أن من ينال منهم خيرا فلا بد من أن يعاون الفقير فيهم ، وعاهدوا الله على ذلك . ثم أقروا مهمة التعليم ورحل كل منهم إلى الجهة التى أرادها لنفسه ؛ ومرت الأعوام ، وجاهد كل منهم فى الحصول على مثله الأعلى ، حتى أسندت الوزارة إلى نظام الملك فجاءه صاحباه يطلبان منه البر بما عاهده الله عليه . فسعى لدى السلطان حتى عين الحسن فى إحدى وظائف الدولة غير أن الأخير كان مطموحا إلى المعالى بطبيعته . ميالا إلى المجازفة فى سبيل العظمة ، وإلى الاغتصاب إن لم ينل مطلبه بالطرق المشروعة . لم يكتف الحسن بهذا بل ترك منصبه ورحل إلى إمارة أخرى واشتغل بالدس والكيد لأميرها وضم إليه الخونة من رجال الأمير حتى تغلب عليه واغتصب منه الإمارة . ثم اشترك فى الحروب الصليبية ونال فيها انتصارات عظيمة فذاع صيته وملأ الآفاق ؛ وأصبح اسمه أداة رهبة للجميع ، وسمى رجاله بالحشاشين إذ كان يقتر هذه المادة المخدرة بينهم حتى يسوقهم كما يريد .

وهكذا أدركته الرقمة بعد الانحطاط ، والشهرة بعد الخمول .

أما عمر الخيام فلم يكن ميالا إلى الخوض فى جو السياسة المضطرب ، ولا راغبا فى عز ولا سلطان بل كان رجل علم . يود من المادة ما يحفظه من الفلاك ؛ يحب من أعمال الدنيا ما يوصله إلى تعرف أسرار الوجود ؛ ويبعده عن المظاهر الخداعة ، والخيالات الكاذبة .

لم يطلب الخيام من نظام الملك شيئا ذا خطر ولا أمرا عسيرا . كلا . بل كان زاهدا عن مثل ذلك . فإنه لما ذهب إلى الوزير قال له : لست أبغى لديك من أن تدعنى أتقبأ طرفا من ظلال نعمتك الفيحاء . لأنتبر بفياء العلم وأدعوك بطول العز والبقاء ؛ وقد كان لزاما عليه أن يطلب مثل هذا الطلب فى تذلل وخشوع بل إن اضطرته الحال إلى أكثر من ذلك لم يعد نظام الملك فلا لوم عليه ولا تنديد ؛ فقد اضطرته غريزة حب البقاء إلى أن يعلن عن حاجته بصراحة حيث أن صناعة الخيام لم تدر عليه الربح ويليها لم تحل دون استزادته من العلم . بل كانت وبالا على آماله ، وعثارا على فؤاد مطموح كفؤاده . وفى ذلك يقول . إن الخيام قد وقع فى تنور الخزف فأحرقته ناره ؛ وقد قطع مقراض النحس أطناب حياته ، وباع حمار الأمل عمره فى سوق التلف بلا ثمن .

أراني قد أطلت عليك فى وصف حالة الخيام المعاشية فاعذرنى فى ذلك . إذ أن لهذا النحس الذى لازمه دخلا كبيرا فى فلسفته وآثاره الفكرية . وأرجو أنى أوفق إلى تبيانه فيما بعد .

أما نظام الملك فقد أنجز ملوعده به فأكرم وفادته وأجاب بغيته وخصص له ألفا ومائتى مثقال من الذهب كانت تدفع له من خزانة نيسابور فى كل عام

ولقد اطمأن الخيام إلى هذه الهبة كل الاطمئنان ، وفرح بها كل الفرح ، واكتفى بها كل الاكتفاء ، وأصبح لا عذر له فى الانقطاع عن الافادة والاستفادة ، فاتخذ له مكانا بمباحثة كان يقصده الطلاب من كل صوب يتهافتون من مورد أستاذهم العذب ويغترفون بينات أفكاره البينات . وكان كلما تقدمت به الأيام كملها آتى أكله وكثر رواده حتى ذاع صيته وملأ الشرق فأدى إليه كل من عرفه واجب الاجلال لعظمة النبوغ ، ولم يشذ عن ذلك سوى جماعة المتصوفين والذين من طبعهم محاربة العلم والعلماء . أما المتصوفون فلأنه هاجم عقائدهم هجوما عنيفا ، وأما المتكاسلون فلا حيلة لنا فى تكييف نفسياتهم .

مكث الخيام على هذا النمط ما بقى له من سنى حياته ، ولا يفوتنى فى هذا المقام — كما فاتنى من قبل — أن أذكر أنه لم يعرف تاريخ ميلاده بالضبط وإنما الذى عرف هو أنه ولد فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ، وتوفى عام ألف ومائة وثلاثة وعشرين بعد الميلاد أى أنه عاش حوالى الستين بالتقريب ثم أسلم الروح إلى بارئها ، فانقضت بذلك حياة حافلة بالآمال واليأس ، والانتصار والهزيمة ، والرضا والغضب . حياة لم تر إلا الؤس يغازلها ، وسوء الطالع يلازمها فسكنت لحكم القضاء ، ورضخت لسيطرة الظروف ، وأخيرا لما لم تجد من الدنيا عطفا ولا حنانا ترجت من آلامها ثم فرت إلى حيث الخلود الابدى والنعيم المقيم

كان الخيام مثالا للجد والنشاط فى عمله منذ الصغر فقد اعتاد المجاهدة من والديه والبيئة المحيطة به . إلا أن انقطاعه إلى طلب العلم غلب فيه روح المعانى على روح الماديات ، فاعتنى بعقله حتى قربه من درجة الكمال وساعده على ذلك استعداده الطبيعى لاستساغة المعلومات وهضمها فكان حاد الذكاء خصب القريحة سريع الحفظ صادق الذاكرة حريصا على حب الحقيقة والجرى وراءها وبذل الجهود لضمها إليه والعمل على ارضائها . ولا ريب فى أن هذه الأشياء مجتمعة هى التى خلقت منه رجلا ذا عقيدة ثابتة ونفس شاعرة وحجة قوية وجرأة نادرة وخلقت منه ساخرا مما يدور فى الدنيا من المكائد وطمع الانسان فى زينتها وزخارفها ، وإن يكن قد نسب إليه إدمان الشراب لما جاء فى أشعاره خاصا بالخمر فان الكثير يرتئون من تعاطيها وعلى فرض أنه كان يشربها فان هذا لا يمنعنا من الاعتراف بزهده فى الدنيا ونظره الفلسفى اليها

وسنكتفى الآن بذكر ما تقدم من حياة هذا الرجل العبقرى تاركين البحث فى آرائه ونظر الباحثين إليها لنتمه فى العدد القادم إن شاء الله

محمد رشاد عبد الضابط

مدرس بمدرسة بيت غمر الأولية للبنين